جوائز أدب الطفل العربية.. وإشكاليّة الأصل والفرع

لؤي خالد

■ تبْقَــى الجوائز الأدبية ـ شــئنا أم أبينا ـ مرآة عاكســة لمن هو أفضــل إبداعياً، حتّى لو وُجد من يطعن في أحقيّة بعض الفائزين بها، أو ذهب آخر للتّشــكيك في ذمّة لجنــة التحكيم لدرجة الإدعاء أن هناك صلــة تجمع بين بعض من أعضائها وبيــن أحد الفائزين، وينطبق هذا على سائر الجوائز، بما فيها تلك المختصة بأدب الأطفال والمراهقين، وهو ما سنركّز عليه في هذه المقالة.

من الجلّي للجميع، أن فئة الأطفال والشباب في دولنا العربية تعاني من شــح شديد في المنتج ـ الكتاب ـ كمّا ونوعا، وهذا بشكل عام، غير أن فئة الأطفال تحت سن التاسعة تجد ما يغنيها من الكُتب التي تتكدّس في المكتبات العربية بشــكل ملحوظ، وسواء أكانت هذه الفئة تجد في المنتــج الموجود ما يلبّي حاجتها أم لا، إلا أن توفّر تلك الكتب في حد ذاته يعدّ أمرا مهمّا، بينما فئة المراهقين وكذلك فئة الشباب، لا تجدان كُتبا خاصة بهما تلبّي الحاجة المتزايدة للمعرفة بالقدر المطلوب.

لقد تنبّهت المؤسسات الثقافية العربية ـ كما هي الحال في الإمارات مثلا ـ إلى النقص الملحوظ في مجال الكتابة للمرهقين والشباب، فسعت إلى تشــجيع الكتاب بالجوائز ـ منها على ســبيل المثال جائزة الشيخ زايد للكتاب، فرع أدب الأطفال، وجائزة اتصالات لكتاب الطفل، وجائزة الشــارقة لكتاب الطفل... الخ ـ تحت مسمّى الأعمال الموجّهة للأطفال، وبالطبع تقصد هنا الأطفال والمراهقين وبعض الشباب، مما سيتسبب في واحد من إثنين، إما نشــر كتاب موجّه لكل هؤلاء، وهذا بالطبع أمر شــبه مستحيل، وإما نشر كتاب يهتم بفئة على حساب أخرى، وهذا ما يحدث عادة، وغالبا ما تهمل فئة المراهقين والشباب.

نثروتراث..وشعر

مــا لفت انتباهي إلى كل هذا، هــو أن الكتاب الفائز بالجائزة كل عام مختلف في أســلوبه عن الكتاب الذي سبقه بالفوز وعن ذالك الذي يأتــي بعده، وللوهلة الأولى يبدو الأمــر جيّدا، خاصة وأن الفرصة هنا متاحة لجميع الكتّاب، غير أننا إذا أمعنا النظر سنجد الأمر مختلفا عن ذلك تماما. فلو أخذنا جائزة الشــيخ زايــد للكتاب ـ فرع أدب الطفل، على ســبيل المثال لا الحصر. منذ تأسيسها إلى الآن (أبريل ٢٠١٥)، وهي: سلسلة كتب شملت كتاب «رحلة على الورق» ـ عبارة عن سلسلة علميــة ـ للدكتور محمد علي أحمد من مصر، وكتاب «رحلة الطيور إلى جبــل قاف» ـ اقتباس من قصة تراثية وإعادة صياغتها ـ للمؤلفة هدى الشــوا من الكويت، وكتاب «ســوار الذهب» ـ عبارة عن قصة مصورة مرســومة على الطريقة اليابانية ـ للمؤلف قيــس صدقي من الإمارات، وكتــاب «البيت والنخلة» للدكتورة عفاف طبالة من مصر، وكتاب «الفتى الذي أبصر لون الهــواء» للمؤلف عبده وازن من لبنان، وكتاب «ثلاثون قصيدة للأطفال» للشاعر جودت فخر الدين من لبنان.

بالإمــكان أن نلاحظ أن جميع الكتب الســابقة الذكر تشــترك في أنها كتب موجهة للأطفال، لكنها مختلفة في جنسها الأدبي، حيث نجد الرواية، والقصة المصورة، والشعر، والتراث، والحقائق العلمية، وهذا يشــير إلى أن الجائزة تبحث عن أســاليب جديدة في الكتابة والإبداع، لا في المواضيع، لذلك لن نســتغرب إذا فاز في السنوات المقبلة كتاب خيال علمي، لأن هذا هو النوع الوحيد الذي ينقص المجموعة الفائزة.

إبداع "الدّخلاء"

قد يتســاءل البعض هنا: ما العيب فــي كون كل كتاب فائز هو من نوع أدبي مختلف؟.. المشكلة لا تكمن في اختلاف الأنواع والأساليب، ولكنها قائمة في المعايير المناســبة لتحديد الفائز بالجائزة، ذلك لأنها تحمــل في الوقت الراهن ظلما كبيــرا لأفكار ومواضيع الكتب، فطريقة الاختيار التي يفترض أنها الأساس أصبحت أمرا ثانويا يمكن التغاضي عنه، هذا أولاً، وثانيا: الجائزة بهذا الشكل تأتي بأثر عكسي، فبدل من الحد من مشــابهة الكتب لبعضها والقضاء علــى النظرة النمطيّة التي ســتطغى على الكتاب الفائز وتجعل جميع الكتب التي تترشح للجائزة على هــذا المنوال، فإنها تدفع المؤلفين إلى تغيير طرقهم وأســاليبهم بتقليد من يســتخدمون تلك الأساليب، والأكثر من هذا قد يندفعون نحو الأدب الغربي فيقتبســون منه أسلوبا جديدا لم يسبق لأحد من الكتاب العرب إن استخدمه. هكذا إذاً، يصبح الكُتّاب العرب ـ سعيا للحصول على الجائزة ـ دخلاء على أسلوب الإبداع لدى الآخر الغربي، وبالتالي لــن يتحقق هدف الجائــزة، ويعود عليها بعكس ما تبغي إليه ســبيلاً، ونتيجة لذلك ســتبقى الصورة النمطية التي نســعى لتغييرها، بل أنها ستتشكل تحت عنوان جديد، هو «يجب أن نأتي بأسلوب جديد».

إننــا نتفهّم وجهة نظر القائمين علــى الجائزة ورغبتهم في احداث فرق في كتاب الطفل، ولكن لدينا بعض الظن من أن الخطأ الأســاس ـ ســواء في جائزة الشــيخ زيد للكتاب أو في غيرها ـ هو وقوع لبسٍ في تحديد الأصل والفرع، وتحديد الفرق بينهما، إذ أن المشرفين عن تلك الجوائز. وربما يكون هذا دون قصد منهم ـ جعلوا أدب الطفل هو الأصل، والأســاليب والأنواع هي الفرع، وهو ما لا يمكننا الجزم بفاعليته، لكن ماذا عن الجوائز الخاصة بأدب الطفل في العالم الغربي؟.

جائزة "بوليتزر"

الطريقة المســتخدمة في الجوائز الأجنبيــة ـ والتي غالبا ما تعود على الأدب بنتائج أفضل ـ تســتخدم تقنية مختلفة، ولنأخذ على سبيل المثال جائزة Pulitzer لــلأدب والصحافة، فإننا نجدها تعكس الأصل والفرع، حيث تجعل من الأســاليب والأنواع الأصل، وما يصدر من كل أصــل قد يكون مناســبا إما للأطفال أو المراهقيــن أو حتى البالغين، وعلى ســبيل المثال تشــتمل الجائزة على فروع عديدة، منها: الخيال العلمي، والمغامرة، والجريمــة، والخيال، والكتاب العلمي، وغيرها من الأنــواع، والحاصل في كل فرع على الجائــزة يتفرغ بعد ذلك للكتابة للأطفال أو المراهقين أو غيرهما من الفئات الأخرى.

المثيــر للإعجاب أن هذا التقســيم لا تقوم به الجائزة، وإنما تتركه للقــراء والنقّاد، مما يكســر الحواجز التي قد تمنــع البعض من قراءة الأعمال المنشورة.

وكما ذكرت في البداية، فإن ربط مراحل الطفولة والمراهقة بالشكل الذي يجعل الكتاب يهمل احداهما مشــكلة تواجهها الكتب لدينا، ولكن اتباع الطريقة التي تســير عليها الجوائز الأجنبية سيمكننا من الفصل بين الفئــات العمرية وعدم تفضيل أحدها على الآخرى. من الجدير أن نذكّر هنا بأهمية الجوائز الأجنبية في محيطها، فهي لها قوة تأثير كبيرة على سوق الكتب.

كمــا أن العديــد من الأفــلام التي تتصــدّر دور الســينما تكون قصصهــا مأخوذة من الكتب الفائزة بتلــك الجوائز، ناهيك عن الزخم الإعلامي الذي يصاحبها، حيث نجد الصحف والمجلاّت تعتبر مصدرا مثيــرا للنقاش والنّقد، ويتبــارى النقاد في الكتابة عنها بكل شــفافية وموضوعية، بينما لا يتعــدّى الحديث عن الكتب الحاصلة عن الجوائز عندنا فترة تسليم الجائزة، ومن النّادر أن نجد قراءة نقديّة عنها، وأغلب المقالات التي تهتم بها تكون ـ عادة ـ عن المؤلف وإنجازاته وأســلوبه، وتهمل تماما الكتاب وموضوعه ورسالته.

الكاتب المعلم

وإذا اطّلعنــا على بعض المناهج الدراســية الخاصة بالقراءة في الــدول العربية، نجد أغلب النصوص إما لشــعراء الجاهلية، أو لأدباء معروفين من أمثال: طه حســين أو الطيب صالح.. إلخ، ولاريب في أن تلك النصــوص مهمّة وضرورية، ولكن من غيــر المنطقي أن لا تُبرمج لنــا نصوصا لأدباء معاصرين ـ خاصة الأحياء منهم ـ فغياب منتوجهم الأدبــي يعني أننا لا نقــدر ولا نثق في الأعمــال الإبداعية المعاصرة، وبالتالي لا نثق في المشــرفين على الجوائز، ولا النقّاد، ولا المسؤولين عن الأدب في عالمنا العربي، وهنا يطرح السؤال التالي: ما فائدة وجود هؤلاء؟.. لقد بتنا أشــبه بالمريض الــذي يذهب إلى الطبيب، فيصف له الدواء، فيذهب إلى الصيدلية ويشــتريه ثم لا يتناوله، غير مبال بالنتائج المنتظرة لفعله.

بالمقابل فإن الروايات والقصص الحاصلة على جوائز عند الغرب تقرر في المدارس وغالبا ما تبرمج بإشــراف مباشــر من مؤسســات الدولــة وضمن سياســتها التعليمية، وعادة ما تغــدو المقالات النقدية مرجعــا للباحثين والمهتمين بالدّرس الأدبــي، مثلما يصبح الكاتب أو الروائي والأديب بشكل عام أشبه بالمعلّم، فهو بعد أن كان أولياء الأمور يعتمدون عليه في تسليّة أولادهم من خلال قصصه أو رواياته المطبوعة، صاروا يعتمــدون عليه لتثقيفهم، ورفع مســتوى الوعي لديهم، وهكذا يُكسب الجوائز مصداقية وأهمية، ومن ثمّ ثقة لا يمكن أن تخونها.

بعــد هذا كلّه، يحق لنا القول: مــن الواضح أنه علينا إعادة النظر فــي الأدب الذي نقدمه للنشــأة وللمراهقين وللشــباب، وأيضا إعادة النظــر في تعاملنا معه، ولابدّ أن نكون أكثر جديّة في اختيار الفائزين بالجوائــز، لأن فوز أي كتاب يعني تشــجيع الأطفال والمراهقين على قراءته، ولا ننســى أن الجوائز ـ كما ذكرت في البداية ـ مرآة عاكســة لمن هو الأفضل.